التغريب

م ع محمد سامي

طوفان من الغرب

لواء

أحمد عبد الوهاب

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

http://kotob.has.it

التغريب

مع محمل

طوفان من الغرب

لواء
أحمد عبد الوهاب

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

http://kotob.has.it

الطبعة الأولى
ربيع الأول ١٤١١ هـ - أكتوبر ١٩٩٠ م

★

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

http://kotob.has.it

بسم الله الرحمن الرحيم

قضية التغريب من القضايا المصيرية فى حياة شعوب العالم الثالث بوجه عام ، ومن بينها شعوب العالم الاسلامى على وجه الخصوص .

وهى قضية لا تزال موضع جَدَلٍ ، يتناولها المثقفون وأولو الأمر من وجهات نظر مختلفة ، ومواقف متباينة . فهناك **دعاة التغريب الكامل** ، جهارا نهارا ، يعلنون كفرهم بكل انتماء إلا للغرب ، ويقطعون صلتهم بكل ما يمت لغير الغرب .

وهناك نظير آخر لهؤلاء ، أشد منهم خطرا ، لأنه ينكر شيئا اسمه التغريب ، وينكر أخطر وسائله المعروفة باسم **الغزو الثقافى** ، ومن ثم يدعو إلى الانفتاح على الحضارة الغربية بكل ما فيها من خير وشر . ويشتد خطر هذا الصنف عندما يتمكن من تشكيل عقول الشباب وتفكيرهم ، كأستاذ فى كلية للعلوم الإنسانية ، أو صاحب قلم ولسان ، استطاع أن ينفذ بوسائله الخاصة ، إلى وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون .

وهناك **الرافضون** للحضارة الغربية جملة وتفصيلا . وهناك **الوسطيون** – بين هؤلاء وهؤلاء – لا يرفضون شيئا إلا لضرره المؤكد ، ولا يقبلون شيئا إلا لنفعه المؤكد . وأخيرا ، هناك **السلبيون** الذين يتجاهلون هذه القضية تماما ، لا يدرون من أمرها شيئا ، وبالتالى لم يتخذوا منها موقفا .

إن التغريب استراتيجية غربية ، محددة الأهداف والوسائل ، وهى سياسة بعيدة المدى تم وضعها موضع التنفيذ ، ومن ثم فهى تؤثر تأثيرا

http://kotob.has.it

مباشرا على حاضر الشعوب المستهدفة ومستقبلها ، بدءا من عملية **صُنع القرار** ، وانتهاء بما يقدم من **مواد الترفيه** ، عبر الوسائل السمعية والبصرية . ولعل هذه الدراسة المتواضعة تستطيع إلقاء الضوء على أهم جوانب قضية التغريب ، فتساهم فى حسمها قبل فوات الأوان ، خاصة وأنها تقوم على **الاعترافات ، والحق ما شهدت به الأعداء** .

ولعل هذه الدراسة تساهم أيضا فى أن يراجع مثقفونا ، ممن ينكرون حقيقة التغريب ، موقفهم من هذه القضية الخطيرة ، حتى لا يكونوا من زُمْرَةِ الخادعين لأنفسهم والخادعين لأمتهم ، **فالرجوع إلى الحق فضيلة** .

هذا ، ولقد حرصت على أن أنقل إلى القارئ بعض الفقرات المقتبسة والعناوين الحاكمة ، فى لغتها الأصلية التى أنقل عنها ، مع ترجمتها إلى العربية، تأكيدا لمصداقية التوثيق .

ولقد وضعت الفقرات المقتبسة – كما هى العادة – بين علامات الاقتباس ، كما وضعت أقواس وجدت هكذا : ( ) فى الأصل المقتبس ، وأقواس هكذا : [ ] ما بيّنها إيضاح أو تعليق من المؤلف .

﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾(١)

أحمد عبد الوهاب

---

(١) الأعراف : ٨٩

http://kotob.has.it

التغريب حرب صليبية ...

الاعتراف سيد الأدلة ...

تلك حقيقة أولية تعارف عليها الناس وصارت من مسلّمات الحياة .

وفى دراستنا هذه نلتقى بخبير متميز هو **سيرج لاتوش** – الأستاذ بكلية الحقوق بجامعة ليل بفرنسا ، والأستاذ بمعهد دراسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية بباريس ، والخبير بشئون العالم الثالث – وذلك لكى يحدثنا عن حقيقة التغريب ، كما عرضها فى كتابه القيم : **تغريب العالم**[1] ، حديث العَالِمِ المتمكن الذى جاء من قلب الغرب ، ليكشف الكثير والكثير من خفايا هذه الحرب الصليبية المستعرة التى تعيشها شعوب العالم الثالث « **وهم فى غفلة** » ، « **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** » !

★

عقدة الماضى :

يبدأ **سيرج لاتوش** كتابه : **تغريب العالم**[2] ، باختيار عنوان مثير للفصل الأول هو : « الصعود الذى لا يقاوم للغرب :

« **انتقام الصليبيين** – «La Révanche des Croisés» وفى هذا يقول : « بعد معاهدة فرساى واقتسام غنائم الامبراطورية العثمانية ، قدم الجنرال جورو إلى دمشق مؤكدا استيلاء فرنسا على سوريا ، ودخل مسجد الأمويين متوجها إلى حيث ترقد رفات صلاح الدين ، قاهر الصليبيين العظيم ، ثم ضرب قبره برجله صائحا : قُم يا صلاح الدين !

(١) Serge Latouche: L,OCCIDENTALISATION DU MONDE, PARIS, 1989

(٢) أرجو التنبيه إلى أن النص المقتبس من هذا الكتاب سوف ينتهى بذكر رقم صفحته مباشرة ، دون الحاجة إلى إستخدام الهامش مرة أخرى .

http://kotob.has.it

ها نحن قد عدنا ! ، إن كل من تكلم فى ذلك العصر عن تغريب العالم إنما كان يستحضر قمة تسلط الرجل الأبيض على كل أراضى المعمورة ..

على أن سيادة الرجل الأبيض لم تنحصر فقط فى مجال الاحتلال العسكرى ، فلقد كان هناك التنصير [التبشير المسيحى] ، وفتح الأسواق ، والتزود بالمواد الأولية ، واستكشاف أراضى جديدة ، وتلبية الاحتياجات من الأيدى العاملة ، كل ذلك كان المرافق الطبيعى للتسلط الاستعمارى ..

ومن قبل ، أمسك شارلمان الصليب بيده ، والسيف باليد الأخرى ، وقام بتغريب مسيرات زحف أوربا الغربية شرقا ، وكذا لتأمين الجبهة الجنوبية . وهنا ولدت المسيحية . إنها لم تولد فى ذلك الشرق الذى لم يعرف كيف يحافظ عليها ، لكنها ولدت فى إخضاع الساكسون ، وفى استعادة أسبانيا .

إن حركة تغريب العالم ، إنما هى فى المقام الأول حرب صليبية (١) ..

لقد شهدت تباشير النهضة فى القرن الثانى عشر قُوَّةَ دفع جديدة أقوى مما كان ، فلقد بدأت المسيحية الحركة فى جميع الاتجاهات . على أن الحروب الصليبية تعتبر واحدة من أكثر المغامرات حماقة التى وعتها ذاكرة البشر على الإطلاق . إن تلك الامبراطورية الاستعمارية الاقطاعية التى نتجت عنها كانت إلى زوال ، بل إنها سوف تجهز على بيزنطة . وفى قصة تغريب العالم ، نجد أن المسيحية الأرثوذكسية (الشرقية) لم تكن المسيحية الحقيقية : لقد كانت فى المرتبة الثانية ، كما أن ضياعها قد قوى قاعدة النضال الغربية وزاد من تجانسها . (ص ١١ – ١٣) .

★

(١) Le mouvement d'occidentalisation du monde est d'abord une croisade.

http://kotobarabi.com

السيطرة الاستعمارية :

« لقد كانت الوكالات التجارية ، والقلاع الحربية ، وإرساليات التنصير ، هى محطات العمل بالتناوب فى يد الغرب . فكان حرفيو **الميمات الثلاث** ، فى خدمة الإمبريالية المظفرة هم : محاربون ، ومتاجرون ، ومنصرون . ولقد أحيطت الكرة الأرضية ، من كل جانب ، بفيض لا يتوقف من التوابل والعبيد ، والذهب ، والبضائع الرخيصة .لقد شهد العالم ظهور كثير من الإمبراطوريات وانهيارها ، كما شاهد زحف كثير من الفاتحين : من الإسكندر الأكبر إلى تيمور لنك ، أما ما يحدث هذه المرة فإنه شيء لا يمكن قلب أوضاعه . إن كثيرا من فتوحات بعض قوى الغرب سوف تنتهى يوما ما ، لكن وضع يد الغرب على الكرة الأرضية أصبح أمرا نهائيا ..

ففى عام ١٨٠٠ ، كانت أوربا تحكم نظريا ٥٥ ٪ من الكرة الأرضية ، وتستثمر فعلا ٣٥ ٪ من مساحتها . ولقد كان التوسع الإقليمى للمستعمرات الأوربية منذ مطلع القرن (التاسع عشر) ، تحت اسم الكشوف الجغرافية ، هو أكثر الأشكال سخرية لذلك التغريب الفظ .

لقد بلغ التغريب مداه ، تحت شكله الاستعمارى ، عشية الحرب العالمية الأولى ، وصار الواجب على الشعوب القوية أن تعطى القوانين والتشريعات إلى الشعوب الضعيفة أو السلالات البشرية الدُّون ، حتى لو انتكست وأصابها ما أصابها . ولقد أصبح الرجل الأبيض يتحكم

http://kotob.has.it

ممتلكات القوى الكبرى من المستعمرات

مقدرة بملايين الكيلو مترات المربعة وملايين السكان

القوى الاستعمارية الكبرى	المستعمرات ١٨٧٦ المساحة	السكان	١٩١٤ المساحة	السكان	الدولة المستعمرة ١٩١٤ المساحة	السكان	المجموع الكلي ١٩١٤ المساحة	السكان
انجلترا	٢٢,٥	٢٥١,٩	٣٣,٥	٣٩٣,٥	٠,٣	٤٦,٥	٣٣,٨	٤٤٠
روسيا	١٧	١٥,٩	١٧,٤	٣٣,٢	٥,٤	١٣٦,٢	٢٢,٨	١٦٩,٤
فرنسا	٠,٩	٦	١٠,٦	٥٥,٥	٠,٥	٣٩,٦	١١,١	٩٥,١
المانيا			٢,٩	١٢,٣	٠,٥	٦٤,٩	٣,٤	٧٧,٢
الولايات المتحدة			٠,٣	٩,٧	٩,٤	٩٧	٩,٧	١٠٦,٧
اليابان			٠,٣	١٩,٢	٠,٤	٥٣	٠,٧	٧٢,٢
مجموع القوى الكبرى	٤٠,٤	٢٧٣,٨	٦٥	٥٢٣,٤	١٦,٥	٤٣٧,٢	٨١,٥	٩٦٠,٦
قوى استعمارية	بلجيكا ــ هولندا ..						٩,٩	٤٥,٣
قوى شبه استعمارية	فارس ــ الصين ــ تركيا ..						١٤,٥	٣٦١,٢
قوى أخرى	الحبشة ــ سيام ...						٢٨	٢٨٩,٩
مجموع الكرة الأرضية							١٣٣,٩	١٦٥٧

http://kotob.has.it

فعلا فى كل الكرة الأرضية ، وصارت قطاراته وبواخره تعبر القارات وتمخر المحيطات . إنه العصر الذهبى ..

بعد هذا بما يزيد قليلا عن نصف قرن ، ماذا تبقى من ذلك الحلم بالسيادة العالمية ؟ لا شيء تقريبا . إنّ بقايا الإمبراطورية ستكون من الآن فصاعدا أعباء فادحه لا تعرف القوى الاستعمارية السابقة كيف تتملص منها . إن ذلك التغريب قد أدى إلى الغرق ، وصار الغرب ضحية لنجاحاته ، بل وتناقضاته » . (ص ١٤ – ١٩)

★

الاستعمار الجديد :

« لم يعد تعظيم الغرب فى خلق تواجد ملموس أو فى قوة تذل الناس بخشونتها وعجرفتها ، لكنه يقوم على قوى رمزية ، هيمنتها المعنوية أكثر مكرا ، إلا أنها أقل قابلية لإثارة المنازعات . وهذه العوامل الجديدة للهيمنة هى : العلم ، والتقنية ، والاقتصاد ، والتصور الخلاق الذى تقوم عليه ..

لقد أصبحت التقنية وسيلة لخلق إيمان عالمى ، فهى الأثر المادى والتواجد المنظور للاله الجديد : العلم . ولقد ساهم المبشرون المسيحيون [المنصرون] كثيرا فى نشر هذه العبادة الدنيوية . فمن أجل التبشير بالإنجيل بين السكان المتوحشين ، لا شيء يضارع اقناعهم بفعالية سحر الرجل الأبيض على سحر أهل بلادهم ، فمن سداد الرأى ، إذن ، أن يشرعوا فى التعميد المسيحى . إن نظام حياة الرجل الأبيض يؤخذ بمجمله : فالنظرة العلمية للعالم ، وهندسة التقنية ، وطقوس العبادة [المسيحية] تسهم كلها فى هذا النظام » (ص ٢٤ – ٢٥)

★

http://kotob.has.it

« **الغزو الثقافى** – L'Invasion Culturelle » .

يقول سيرج لاتوش ، تحت هذا العنوان الفرعى : « تنطلق موجات فيض ثقافية ذات مذاق متميز ، من أقطار مركز الحضارة [الغربية] ، وتغمر الكرة الأرضية فى شكل : صور ، وكلمات ، وقيم أخلاقية ، وضوابط قانونية ، ونظم سياسية ، كما تتدفق نحو العالم الثالث معايير للخبرات والضوابط الفنية التى أبدعتها وحدات خلاقة ، وذلك عن طريق وسائل الإعلام : من صحافة وراديو ، وتلفزيون ، وأفلام ، وكتب واسطوانات ، وأجهزة فيديو . إن قوام الإنتاج العالمى من علامات ، المنتجات الصناعية يتركز فى الشمال ، حيث يتم تصنيعها فى مصانعه ومختبراته ، تحت مراقبته ووفق معاييره ونماذجه .

وإن سوق الإعلام يمثل شبكة احتكار لأربع وكالات هى : الأسوشيتدبرس ، واليونيتدبرس (الولايات المتحدة) ، ورويتر (بريطانيا العظمى) ، وفرانس برس [فرنسا] . إن كل محطات الراديو وقنوات التلفزيون ، وكل صحف العالم ، تشترك جميعها فى تلك الوكالات ، كما تتدفق ٦٥ ٪ من مواد الإعلام العالمية من الولايات المتحدة ، كما أن نسبة تتراوح بين ٣٠ ٪ إلى ٧٠ ٪ يتم استيرادها من مركز الحضارة [فى الغرب] .

إن هذا الفيض المتدفق من الإعلام لا يمكنه إلا أن يشكل رغبات المستقبلين له وحاجاتهم ، وأنماط سلوكهم وعقلياتهم ، ونظم التعليم عندهم وأساليب حياتهم .

إن هذه الدعاية الماكرة – وهى منحة لا تقاوم – تشهد على الحيوية الفياضة للمجتمعات فائقة التنمية ، إلا أنها تخنق كل الإبداعات الثقافية عند المستقبلين السلبيين لتلك الرسائل الإعلامية . وهكذا ، نجد أن فرنسا تُؤَمِّنُ خدمة معلومات مجانية بالأقمار الصناعية لمحطات

http://kotob.has.it

الراديو والتلفزيون الإفريقية . فهى تقدم كل يوم عشر دقائق عن الأحداث الجارية الدولية والإفريقية ، كما تقدم أفلاما وثائقية ، وتبث ٥٢٠٠ ساعة سنويا من البرامج مجانا ، وأخيرا فإنها توزع أفلاما فرنسية ، وتقدم معونة مالية تعادل ٨٠ ٪ من الإنتاج السينمائى لإفريقيا الناطقة بالفرنسية .

ومن المؤكد أن فرنسا تسترد بعض المكاسب من هذه الهدايا التى تقدمها إلى رؤساء الدول الإفريقية ، ذلك أن كل الدول الإفريقية الناطقة بالفرنسية قد أخذت بنظام البث التلفزيونى سيكام [الفرنسى] ، ما عدا الكامرون التى أخذت بنظام البث الألمانى بال ، إلا أن فرنسا تزوده بالمعدات التى تصل نسبتها إلى ٨٠٪ .

على أن المزايا المؤكدة للصناعة الفرنسية ، فى مجال السمعيات والمرئيات ، قد لا تكون هى الأكثر أهمية ، فنتائج هذه السياسة إنما هى سياسية كما هى رمزية .

إن الانسان يمكنه أن يتحدث هنا عن هيمنة ثقافية تمارسها الدول الغنية ، وأنه عن طريق المِنَح ، وليس غصبا ، أن أصبح مركز الحضارة فى الغرب يمارس سلطة غير عادية من الهيمنة والسيادة . » (ص ٢٧ — ٢٨) .

★

العالم يعيش اليوم فى العصر المسيحى :

« إن الإنسانية كلها ، تعيش منذ الآن فصاعدا ، فى العصر المسيحى ، وعلى الأساس الزمنى لتوقيت جرينتش ، وإن الإنسان لا يفكر بما فيه الكفاية حول ما يعنيه هذا . فمن المؤكد أن هناك (تقاويم) زمنية أخرى مثل التقويم الهجرى فى الإسلام ، والتقاويم

http://kotob.has.it

البوذية ، وثمة تقاويم أخرى . كما أن هناك تقاسيم للسنة خلافا للسنة التقويمية الغربية المحسوبة على حياة المسيح ..

ومن الملاحظ أن العالم قد أخضع نفسه لتلك التقاسيم الزمنية فى فترة أقل من الوقت الذى أخذته أوربا نفسها . فلم يحدث أن تحددت بداية السنة لتكون بصفة رسمية أول يناير إلا عام ١٥٦٤ ، على عهد شارل التاسع ، كما أن هذا النظام الزمنى الجديد لم يؤخذ به فى روسيا إلا فى عهد بطرس الأكبر عام ١٧٢٥ ، وفى انجلترا عام ١٧٥٢ . ولقد كان بونابرت هو الذى قضى على آخر مقاومة للأخذ بهذا النظام فى أوربا كلها ! وفى القرون الوسطى ، كان تعيين التواريخ يتغير من بلد لآخر ، فكانت السنة تبدأ رسميا يوم عيد الميلاد [٢٥ ديسمبر] فى ألمانيا وسويسرا والبرتغال وأسبانيا ، وتبدأ أول مارس فى البندقية ، وتبدأ ٢٥ مارس فى انجلترا . أما فى روما فكانت تبدأ مرة يوم ٢٥ يناير ومرة أخرى يوم ٢٥ مارس ، وفى روسيا فإنها تبدأ فى الانقلاب الربيعى ، وفى فرنسا كانت البداية الرسمية للسنة يوم عيد الفصح ، وهو عيد متغير التوقيت ، ولهذا كانت السنوات ذات النظام الفرنسى تتغير ما بين ٣٣٠ يوما ، و٤٠٠ يوما . ولم تتغير روسيا من التقويم اليوليانى [عمل به فى روما عام ٤٦ ق . م] إلى التقويم الجريجورى [الذى أدخله البابا جريجورى الثالث عشر ١٥٠٢ - ١٥٨٥] إلا بعد أن أصبحت الاتحاد السوفيتى . ومن المعلوم الآن أن ثورة اكتوبر وقعت فى شهر نوفمبر !

ورغبة فى تقليد الأسياد [الغربيين] ، ومن أجل ضرورات البقاء ، ولأن التوافق مع المعايير [الغربية] هو القانون ، فإن التقليد يندفع بلا حدود . وتكون نتيجته صورا ساخرة فى المؤسسات ، وفى تصرفات الأفراد ، كما أنه يكون كارثة بسبب السيطرة المستبدة على المواطنين وقهرهم ، وسوء استخدام السلاح وممارسات الشرطة .. لقد حقق

http://kotob.has.it

توحيد العالم [تحت مظلة التغريب] انتصار الغرب وإن الإنسان ليدرك تماما أن هذا ليس أخوة عالمية . فليس المقصود انتصار الإنسانية ، إنما الانتصار على الإنسانية » . (ص ٢٩ - ٣١)

★

« تحت شارة الصليب - Sous Le Signe de La Criox »

« إن الإنسان يقرن الغرب دائما بالمسيحية . ولقد كان تحويل الناس إلى المسيحية ، بالحديد وبالدعوة إلى الإيمان ، إحدى قواعد التوسع الغربى ، وكان التبشير المسيحى أحد المكونات الجليلة للغرب . **إن تغريب العالم كان لمدة طويلة جدا - ولم يكف كليا عن أن يكون - عملية تنصير**(١) . **إن تكريس الغرب نفسه للتبشير بالمسيحية يتضح تماما ، قبل الحرب الصليبية الأولى ، فى انطلاقات التنصير قَسْرًا . وإن مقاومة شارل مارتل فى بواتييه ، وأكثر من ذلكِ تحويل السكسون إلى المسيحية بوحشية ، على يد القديس بونيفاس [٦٨٠ - ٧٥٤] : ألا يشكل ذلك الحرب الصليبية الأولى ، وأقصد القول ، أنه شهادة لتأكيد ذاتية الغرب كعقيدة وكقوة ؟ .. وهكذا ، نجد أن ظاهرة المبشرين بالمسيحية ، هى بالتأكيد حقيقة ثابتة للغرب ، باقية فى ضميره بكل محتواها الدينى ، يجدها الإنسان دائما فى العمل تحت أكثر الأشكال تنوعا .. واليوم أيضا ، فإن أغلب مشروعات التنمية الأساسية فى العالم الثالث تعمل بطريق مباشر أو غير مباشر ، تحت شارة الصليب** » . (ص ٣٥ - ٣٩)

★

« فشل التنمية - L' Echec du Developpement .

« إن التغريب ، فى أحد أوجهه ، ليس إلا اللباس الثقافى للتصنيع ،

(٤) L,occidentalisation du monde a été trés longtemps, et n,a pas tatalement cessé d,étre, une christianisation.

http://kotob.has.it

لكن تغريب العالم الثالث هو أولا ، عملية محو للثقافة ، بمعنى أنها تدمير بلا قيد ولا شرط للبنيات الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التقليدية ، لكى لا يقوم مقامها فى حينه سوى كومة كبيرة من الخردة ، مصيرها إلى الصدأ .. إن هذا الذى يعرض على سكان العالم الثالث ، لكى يحل محل هويتهم الثقافية الضائعة ، إنما يتضمن صنع شخصية وطنيه عابثة ، ذات انتماء خدّاع إلى مجتمع عالمى [هو الغرب] .. إن ضياع الهوية الثقافية الذى ينتج عن ذلك ، أمر لا يقبل الجدل ، وهذا يساهم بدوره فى عدم استقرار الشخصية الوطنية سياسيا واقتصاديا . وما يتبقى بعد ذلك من الابداع الوطنى ، يكمن فى حالة تبعية إزاء ثقافة تبدو لها أجنبية ، وإنها لكذلك .. ويكتب جاك إليل [فى كتابه : النظام التقنى] : **مع استخدام أكثر وسائل البث عجبا وبراعة ، فإن الإنسان يبث اليوم ثقافة ، يمكن وصفها فى أحسن الأحوال ، بأنها خاوية من الثقافة ، يجرى إنتاجها عشوائيا** » . (ص ٨٦، ٨٨، ١٠٨)

★★

أما بعد :

ماذا يقال ، ولا حاجة بنا إلى مزيد بعد كل ما قيل .. **فالتغريب – أولا وأخيرا – هو حقيقة واقعة ، لا ينكرها إلا جاهل ، أو عابث ، أو مرتزق** ... وهو حرب صليبية مستعرة الأوار ، مجهودها الرئيسى موجّه الى تنصير العالم وخاصة العالم الاسلامى ، ومايستتبع ذلك من عواقب خطيرة ، أبسطها طمس الهوية وخلق مسخ من البشر بعد تدمير كيانها العقائدى والفكرى ، وتبديل نظم حياتها وأنماط سلوكياتها .

ووسائله كثيرة ومتنوعة ، ومن أخبثها ما يقدم تحت مظلة التنمية التى يذهب بريقها المزيف بأبصار المخدوعين والجاهلين ، فتعمى البصائر وتتأكد الخسائر : دنيا ودينا .

دعـــاة التغريـــب

تثير صدمة المواجهة مع الحضارة الغربية ردود أفعال مختلفة عند الغرباء عنها .

فمنهم من يصاب بحالة من الانبهار تفقده نفسه ، حتى إذا بدأ البحث عنها لم يجدها ــ أو هكذا خيل إليه أنه لن يجدها ــ إلا فى الذوبان الكامل فى تلك الحضارة . وهؤلاء هم دعاة التغريب .

ومنهم من يقف أمامها فاحصا متفرسا بعين الناقد البصير، ليستبين له خيرها وشرها ، ومن ثم ينهل من خيرها ويدعو إليه وإلى الأخذ بأسبابه ، ويتجافى عن شرها ويحذر من عواقبه الخاسرة . وهؤلاء هم دعاة التنوير .

ومنهم غير هؤلاء وهؤلاء ...

وفى عالمنا العربى والإسلامى نجد غير قليل من دعاة التغريب ، وغير كثير من دعاة التنوير . ويهمنا التعرف على حقيقة كل من هذين الصنفين من قادة الفكر والتوجيه لقطاعات عريضة من الجماهير التى تقرأ لهم وتنفعل بهم ، والذين تعدى تأثيرهم الحدود الجغرافية لأوطانهم ، وانتقل إلى غيرها من البلاد .

ونظرا لحرصى الشديد على أن تكون صفحات هذا الكتاب أقل القليل ، رأيت الاكتفاء بمثال واحد لدعاة التغريب ، أعرض له فى هذا الفصل ، ثم مثال واحد لدعاة التنوير أعرض له فى الفصل التالى ، مع التركيز على النشأة والخلفية باعتبارها مفتاح الشخصية . وإن كان كلاهما يأتى من مصر ، فإن المتعارف عليه أن الحال لن يختلف كثيرا عما هو كائن فى غيرها من البلدان .

★ ★

http//kotob.has.it

سـلامة موسـى

يعتبر واحدا من أكبر دعاة التغريب فى مصر ، فى القرن العشرين ، هيأت له الظروف أن يشغل مساحة من الفكر المصرى الحديث ، وأن يمسك دفة للتوجيه من خلال كتاباته وأعماله الصحفية .

★

النشأة والخلفية :

مدخلنا للحديث عن نشأة سلامه موسى وخلفيته ما سطره قلمه فى كتابه : «**تربية سلامة موسى**»[1] **الذى يقول فى مقدمته :**

«قضيت عمرى إلى الآن (١٩٤٧) وهو يقارب الستين فى بقعة مضطربة من هذا الكوكب هى مصر . وعشت هدا العمر وأنا أرى إنتقالها المتعثر **من الشرق إلى الغرب ، أى من آسيا إلى أوربا** . وعانيت مخاضها وهى تلد هذا المجتمع الجديد الذى لا يزال طفلا يحبو» .

لقد أسقط سلامه موسى أفريقيا من حسابه بالكلية ... أسقطها فكرا وتاريخا وجغرافية !

★ ★

وعن مولده وطفولته ، يقول : «أغلب الظن أنى ولدت حوالى ١٨٨٧ ، وكانت أسرتى ترجع إلى البياضية فى مديرية أسيوط ، وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤٠ سنة ، أى فى نهاية الحكم الفرنسى وبداية حكم محمد على .. أما لماذا هجر فرعنا الحاضر فى مديرية الشرقية [بمدينة الزقازيق] هذه القرية الصعيدية ، فاننا نجهل تفاصيله ، ولكنى أرجح هذا التفسير التالى :

---

(١) الناشر مؤسسة الخانجى بمصر

http://kotob.has.it

لما غزا نابليون مصر فى أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط ، ولم يكن الشعب المصرى ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان (الوعى) الوطنى الذى نحسه فى عصرنا . وذلك لأن الوجدان الدينى كان يقوم مقامه . **وفرح الأقباط بدخول نابليون** واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالعمائم السوداء ..

نشأت فى بيت لا يزوره ضيف إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف انزواء على ما ورثت من **المزاج الانطوائى** ، **وقد صار** هذا الانزواء بعد ذلك فضيلتى ورذيلتى .. **وقد عانيت كثيرا من هذا النقص الاجتماعى فى حياتى بعد ذلك** ..

وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حيث تجمدت فى الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والسادس . ولذلك كانت العذراء ، بارزة بروزا يُبرِّرُ وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية فى مصر فى نهاية القرن الماضى واوائل الحاضر بأنها « ماريولوجية » . ولكن انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر استفز الكنيسة القبطية وأثارها إلى الوجدان المسيحى . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر ويجدون فيه شقاقا لم يكن ضروريا ..

قضيت طفولتى وأنا فى ملابس سوداء احمل عبئا من التعاويذ يعوق الحركة الحرة ، بل لا تزال فى أذنى علامة الخرم الذى علق به قرط إيهاما بأنى لست غلاما بل بنتا ، حتى نتقى بذلك العين . ص ٨ — ١٨ » .

★

صدمة الحضارة والانبهار :

يقول سلامه موسى : « سافرت إلى أوربا وأنا على غير وجهة تعليمية

http://kotob.has.it

معينة سوى الحصول بأية وسيلة على الثقافة العصرية .. ففى ١٩٠٨ سافرت إلى فرنسا وهبطت باريس ، **فلما رأيت المجتمع الباريسى واختلطت به ورأيت المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها ، شعرت أن أفقا جديدا يتفتح أمامى** ، لم يستطع يعقوب صروف أو فرح انطون أن يفتحه لى من قبل . فإنهما لم يمسا هذا الموضوع ، أى حرية المرأة ، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان وكانا بالطبع يخشيان أن يعاب عليهما النقد للعقائد والتقاليد الإسلامية ..

كانت المرأة الفرنسية أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى ، بل كذلك حرية المرأة فى أوربا الغربية ..

وفضل فرنسا علىّ أنها جعلتنى اوربى التفكير والنزعة . وقد تَرَكَتْ باريس فى نفسى إحساسا بأنها عاصمة العالم المتمدن .. ولم يتركنى هذا الإحساس إلى الآن ..

فرنسا ليست الآن وطنا جغرافيا للفرنسيين وحدهم ، إنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية وأحب باسكال وروسو ، وعرف كلود برنار واناتول فرانس . ولا يستطيع أحد أن يقول هذا القول عن أى قطر آخر . ص ٦٤ — ٧٠ » .

ولقد عاد سلامه موسى إلى مصر بعد قضاء سنة فى فرنسا ، ثم سافر إلى لندن فى رحلة خاصة مماثلة ، حاول أثناءها أن ينتظم فى دراسة تؤهله للعمل محاميا ، لكنه فشل . ثم عاد إلى مصر . ولما تساءل مع نفسه عن الأسباب التى تجعله يعود ، كانت إجابته التى سطرها : « لأكافح الإنجليز حتى يجلو عن وطننا ، وأيضا **أكافح تاريخنا . أكافح هذا الشرق المتعفن الذى تَنْغُلُ فيه ديدان التقاليد .. أجل ، إنى عدو للإنجليز وعدو لآلاف من أبْنَاءِ وطنى** ، لهؤلاء الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية وحرية المرأة **ويؤمنون بالغيبيات** ..

http://kotob.has.it

على الرغم من الشهرة التى تتمتع بها باريس بشأن حرية المرأة فقد وجدت أن المرأة الإنجليزية أكثر حرية ، والشبان والفتيات يتحابون ويتغازلون جهرة فى الحدائق العامة بل وأحيانا فى الشوارع ولكن الشلل النفسى الذى أحدثته التربية الشرقية فينا حال **دون استمتاعنا نحن المصريين بهذه المسرات فى لندن** . واحتجت إلى مرانة طويلة قبل أن اجرؤ على المباداة والسلوك الاستقلالى فى الحب . ص ٧٣ ، ٧٨» .

ثم أعقب ذلك بالحديث عن علاقته الجنسية بامرأة انجليزية أتخذها عشيقة له ، يقول فيها : «كانت من الجمال بحيث تحدث فيمن يحبها أو فىَّ بعض ذلك العيب الأكبر الذى كان يعلله فرويد بمركب أوديب — ص ٧٨» .

*

التكوين الفكرى والعقائدى :

يقول سلامه موسى : «عندما أرجع بذاكرتى إلى البذور أو الجذور التى نشأت ونبتت منها ثقافتى الحاضرة **أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة من ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن . ففى تلك الفترة كانت هناك طائفة من المذاهب والنظريات فى الأدب والعلم** «تتجرثم» **وقد كان حظى الحسن أن أدركت الجراثيم الأولى لهذه الحركات . ومع أنى الآن مشرف على الستين فإنى أجد ، بالاستبطان الذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقده أو أدعو إليه من نظريات ومذاهب فى ١٩٤٦ إنما أخذت جراثيمه الأولى من تلك الفترة** ، ولم تكن الزيادة فى السنين بعد ذلك سوى زيادة فى نمو هذه النظريات والمذاهب أو التوسع فيها أو التفرع منها ..

إن [نيتشه] غرس فىَّ الاقدام الفلسفى ، **وحطم عندى ما كان باقيا من قيود غيبية** . أما مؤلفات **داروين** فكنت أقرؤها فى عناء

http://kotob.has.it

التفكير .. **ومع ذلك هو الباقى الآن فى كيانى الثقافى** . وكتابى : « نظرية التطور وأصل الإنسان » هو إحدى ثمرات داروين . ولا تزال هذه النظرية تفتق فى خلاياى الذهنية .. ليس شك فى أن حبى لداروين وتحيزى لنظرية التطور قد تركا أثرهما فى أسلوبى الكتابى .

ومن الكتّاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ومازالت المركبات الذهنية التى خلفوها فى خلاياى الرمادية قائمة بل نامية : **كارل ماركس** .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس فى رأسى مركبات ذهنية وجعلانى أنظر إلى الدنيا وإلى الاحياء فى استعراض علمى وتحليل اقتصادى وسيكولوجى . **وعندما استبطن احساسى الدينى أجد أن بؤرة هذا الإحساس هى « التطور »** .

ويأتى **فرويد** ، بعد داروين وماركس ، فى إيجاد المركبات الذهنية التى عملت فى توسعى . ص ٨٥ ــ ١٠٤ » .

« بزغ طه حسين[1] ، وكان أزهريا معمما يكره الأزهر ، ويعربد على صفحات « الجريدة » ..

ومن الشخصيات الذهبية التى تبرز فى وجدانى وأفتأ أذكرها كلما عنَّ حديث عن الأدب أو القلم أو الشرق أو الحضارة ، شخصية **شبلى شميل** . عرفته فى ١٩١٢ كان يدعو إلى الحرية الفكرية فى كلمات جريئة وأحيانا فى وقاحة جريئة ، **كما كان يدعو إلى « نظرية النشوء والارتقاء » أى التطور ، وكان يسخر من الغيبيات فى كلمات لا يجرؤ غيره على إستعمالها** . ص ١٩٢ ، ١٩٦ » .

---

(١) بدأ طه حسين ، كتابه : مُستقبل الثقافة فى مصر ، بتساؤل يقول : « نريد أن نعرف أمصر من الشرق أم من الغرب ؟ وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافى والغرب الجغرافى ، وإنما أريد الشرق الثقافى والغرب الثقافى » .

http://kotob.has.it

لقد ولد سلامه موسى مسيحيا ، ولكنه حين شب وكبر وشاخ كان تأثير الملاحدة الكبار فى صياغة أفكاره ومعتقداته واضحا ومعترفا به . وحين نستشف حقيقة عقيدته الدينية نجده يقول : « **جميع الكتب المقدسة سواء عندى . ولكنى أضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب** . ص ٢١٨ » .

★

ذلك بعض ما كان من نشأة سلامة موسى وتكوينه الفكرى والعقائدى وإذا كان هذا هو ما صرح به وكشفه للناس من كوامن نفسيته ، فإن ما تعارف عليه الناس فى هذا المقام أن يقولوا : وما خفى كان أعظم ... !

وهنا نتذكر قول المسيح فى موعظة الجبل : « **إن كان النور الذى فيك ظلاما ، فالظلام كم يكون ؟!** . متى ٦ : ٢٣ »

★ ★

دعـوة سـلامه موسـى :

إن ما رأيناه من اعترافات سلامه موسى لكفيل بصدق توقعاتنا لما يمكن أن يتضمنه ما يدعو إليه ، وكرس حياته من أجله .

فالمسيح يقول : « هل يجتنون من الشوك عنبا ، أو من الحسك تينا ــ متى ٧ : ١٦ » .

وهاهو سلامه موسى يدعو إلى التغريب على عمى ، دون تبصر أو تمحيص ، فيقول فى مقدمة كتابه : « **اليوم والغد** »[1] : « كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة ، توضحت أمامى أغراضى فى الأدب كما أزاوله . فهى تتلخص فى أنه **يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق بأوربا** .

(١) عنى بنشره الياس انطون ــ صاحب المطبعة العصرية بمصر .

http://kotob.has.it

فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق ، زادت كراهيتى له ، وشعورى بأنه غريب عنى .

وكلما زادت معرفتى بأوربا ، زاد حبى لها وتعلقى بها ، وزاد شعورى بأنها منّى وأنا منها .

أريد حرية المرأة كما يفهمها الأوربى ..

وأريد من التعليم أن يكون تعليما أوربيا **لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه** ، وأن يتولى تعليم اللغة رجال متمدينون **يفهمون على الأقل نظرية التطور ، ولا يعتقدون أن اللغة العربية أوسع اللغات ..**

وأوريد أن أرى العائلة المصرية مثل العائلة الأوربية : زوج وزوجة وأولادهما بلا ضرار **كما يجرى الآن فى آسيا ، بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة ، ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة .**

وأريد من الأدب أن يكون أدبا أوربيا ، ٩٩ فى المائة منه قائم على المعنى والقصد ، لا على اللفظ كما كان الحال عند العرب .

وأريد أدبا مصريا أبطاله فتيان مصر وفتياتها ، لا رجال الدولة العباسية **ولا رجال الفتوحات العربية ..**

أما الثقافة الشرقية فيجب أن نعرفها **لكى نتجنبها** لما نرى من آثارها فى الشرق ، آثار العبودية والذل **والتوكّل على الآلهة ..**

لماذا لا نصطنع جميعنا الثقافة والحضارة الأوربيتين ، ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب آسيا ؟ **أجل ، يجب أن نكون أوروبيين .**

هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى ، سرا وجهرا فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب .

وفى كل ما أكتب أحاول أن أغرس فى ذهن القارىء تلك النزعات التى اتسمت بها أوربا فى العصر الحديث ، **وأن أجعل قرائى يُوَلُّونَ**

http://kotob.has.it

وجوههم نحو الغرب ويتنصَّلون من الشرق ، لأنى أعتقد أن لا رجاء لنا بالنجاح فى العالم ، بل لا رجاء لنا بأن نعيش عيشة ، إذا لم تكن سعيدة فلا أقل من أن تكون غير شقية ، إلا إذا تملصنا مما اكتسبناه من العادات الشرقية فى نظام العائلة ونظام الحكومة والنظر للمرأة والنظر للأدب » .

*

ذلك هو المذهب السلامونى . كما صاغه صاحبه ... وكم فى عالمنا العربى والإسلامى من نسخ متكررة من سلامه موسى داعية التغريب بلا حدود . ويكفى ــ للتدليل على ذيوع دعوته بين قطاع هام وعريض من المثقفين فى العالم العربى ــ ان كتاباته فى مصر تجد لها صدى قويا فى المغرب ــ مثلا ــ حيث تجرى البحوث فى **« اشكالية النهضة » عنده ، وتطبع فى كتاب يدرس لطلبة السنة النهائية بكلية الآداب ، يتحدث فيه المؤلف عن سلامة بن موسى ، كما لو كان يتحدث عن موسى بن عمران .. !**

لكن تلك واحدة من خصائص دعاة الماركسية والإلحاد فى العالم كله ، خاصية التضامن والتجاوب السريع ، التى تمكنهم من نشر دعاواهم والترويج لها ، فتبدو براقة على غير حقيقتها . إن هذا شىء برع فيه تلاميذ الملاحدة الكبار :

تشارلز داروين
وكارل ماركس
وسيجموند فرويد

* * *

http://kotob.has.it

... ودعـــاة التنويـــر

تمهـيد :

يصدر التنوير لغة من النور ، وعكسه الاظلام من الظلام ويعرف التنوير فى أبسط صورة بأنه : زيادة المعرفة ، والتحرر من الجهالة وسوء الفهم والمعتقدات الباطلة القائمة على الخرافات والهوى والتقاليد العمياء التى ليس لها من قوائم الحق أدلة أو براهين .

ذلك مفهوم التنوير فى الفكر الأوربى الحديث ، حين بدأت شعوب أوربا المسيحية ــ وخاصة فى القرن الثامن عشر ، قرن التنوير ــ تؤمن بأن التقدم والازدهار ليس لهما من سبيل سوى العقل والعلم ، وليس الدين أو تعاليم الكنيسة .

★

وحين نستعرض **التنوير من مفهوم إسلامى** نجده يقوم على أنه :

١ ــ علم وهدى من كتاب الله :

﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(١)

٢ ــ تحرير من تقاليد الأولين :

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ .(٢)

---

(١) إبراهيم : ١

(٢) الزخرف : ٢٣ ــ ٢٤

http://kotob.has.it

٣ ــ تحرير من الهوى :

﴿لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ، فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ (١)

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ .(٢)

٤ ــ تحرير من قيود وأغلال التزم بها الناس فكرا وسلوكا ، فصيرتهم موتى وهم بعد أحياء :

﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وينْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم﴾ (٣)

فالتنوير باختصار ــ تحصيل العلم ، وتحرير طاقات الإنسان الخلّاقة .

★

والعلم حقائق تقوم على تطبيق مبدأين رئيسيين :

الأول ــ ترك الظن :

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (٤)

الثاني ــ إقامة البرهان :

﴿تِلكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ، إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٥)

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ، فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (٦)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ : قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَّبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (٧) .

★

(١) ص : ٢٦
(٢) الروم : ٢٩
(٣) الأعراف : ١٥٧
(٤) النجم : ٢٨
(٥) البقرة : ١١١
(٦) القصص : ٧٥
(٧) النساء : ١٧٤

https://kotob.has.it

وللعلم وسائل يتحصل بها ، من أهمها :

(١) التعلمُّ من ذى علم :

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ .(١)

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .(٢)

(٢) المشاهدة وإستخدام الحواس :

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ .(٣)

﴿انظُروا ماذا فى السَّمواتِ والأرض﴾(٤) .

(٣) الدراسة والتعليم :

﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ .(٥)

﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ، وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ .(٦)

(٤) إستخدام المنطق :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ .(٧)

﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّا بْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ .(٨)

---

(١) فاطر : ١٤ (٢) النحل : ٤٣ (٣) الزخرف : ١٩
(٤) يونس : ١٠١ (٥) آل عمران : ٧٩ (٦) سبأ : ٤٤
(٧) الأنبياء : ٢٢ (٨) الإسراء : ٤٢

http://kotob.has.it

٥ ــ إستخدام القياس :

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ ، تَعُودُونَ﴾ . (١)

﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخلْق ثُمّ يُعيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .(٢)

٦ ــ إستخدام الاستباط .

﴿وَلَوْ رَدّوهُ إِلَى الرَّسُولِ ، وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ، لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ . (٣)

٧ ــ البحث والإستكشاف :

﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ، ثُمَّ اللهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .(٤)

★

وخلاصة هذا التمهيد أنه : إذا كانت شعوب أوربا المسيحية لم تعرف التنوير ــ أو بالأحرى شيئا من التنوير ــ إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، فإن الشعوب المسْلِمة عرفته قبلها بأحد عشر قرنا ، منذ نزل القرآن ، وظهر الإسلام ، وأقام حضارة زاهرة دامت قرون عديدة .

والمُسْلِم حقا ، العارف أصول دينه ، والسليم فى جسمه ونفسه ، والذى أوتى من العلم حظا وفيرا ، هو داعية تنوير ولاشك .

ولقد كان العلم ــ ومازال ــ هو الخير الوحيد الذى أُمِرَ المسلم أمرا ، أن يدعو الله أن يزيده منه : ﴿وَقُل : رَّبِ زِدْنِي عِلْمًا﴾ . (٥)

---

(١) الأعراف : ٢٩ (٢) الروم : ٢٧ (٣) النساء : ٨٣

(٤) العنكبوت : ٢٠ (٥) طه : ١١٤

http://kotob.has.it

والآن ، نقدم مثالا واحدا لدعاة التنوير فى العصر الحديث ، كما سبق أن قدمنا مثالا واحدا لدعاة التغريب .

★ ★

رفاعــة الطهطــاوى

النشأة والخلفية :

ولد رفاعه رافع الطهطاوى سنة ١٨٠١ م بطهطا ، فى محافظة أسيوط ، وحفظ القرآن فى صغره . وقد هيأه أخواله للالتحاق بالأزهر ، إذ كانوا من علمائه ــ وفيهم الشيخ محمد الأنصارى ، أمين الفتوى ــ فجاء إلى القاهرة سنة ١٨١٧ والتحق بالأزهر لمدة تزيد على خمس سنوات ، أصبح بعدها أهلا للتدريس به .

ولقد كان من حسن حظ رفاعة أن اتصل فى الأزهر بعالم مُتنورٍ هو الشيخ حسن العطار ، الذى تولى ــ فيما بعد ــ مشيخة الأزهر من سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٣٥ .

وكان محمد على ــ والي مصر ــ قد اتجه بالبعثة الأولى إلى إيطاليا سنة ١٨٨٣ ، ثم تحولت البعثات إلى فرنسا سنة ١٨٢٥ بعد حضور كلوت بك ، رئيس الجراحين بالجيش المصرى .

لقد كانت مكانة فرنسا «العسكرية والعلمية غير خافية على محمد على ، ولكن الحذر من الحياة الفرنسية جعل من الضرورى حفظا لأعضاء البعثة وصيانة لسلوكهم ، أن يلحق بالبعثة وُاعظ وإمام ، يشرف على أعضاء البعثة إلى جانب مشرفين إداريين آخرين .

وما أن ظهرت فكرة تعيين إمام للبعثة حتى رشح العطار تلميذه رفاعة الطهطاوى لهذه الوظيفة .

http://kotob.has.it

وهكذا بدأ التحول الكبير فى حياة الطهطاوى ، وهو تحول ارتبط عند الطهطاوى بشيخه العطار المتفتح نحو المعرفة ، المؤمن بوجوب التغيير . وكان شغف العطار بالتعرف على التقدم فى فرنسا وراء تدوين الطهطاوى لكتابه « تخليص الإبريز » . وهكذا سافر الطهطاوى إلى فرنسا إماما وواعظا للبعثة المصرية ، متفتح الذهن لمعرفة الحياة الفرنسية »[1] .

★ ★

الطهطاوى فى باريس :

أقام الطهطاوى فى باريس خمس سنوات [١٨٢٦ — ١٨٣١] ، وهو يصف لنا الفترة الأولى من الدراسة بقوله :

« لما ذهبنا إلى باريس مكثنا جميعا فى بيت واحد ، وابتدأنا فى القراءة ، فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب ، وهوأنّا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ ساعتين ، ثم بعد الغداء نتعلم دروس كتابية ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية ، ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوى . وفى كل جمعة ثلاثة دروس فى علمى الحساب والهندسة .

وفى مبدأ الأمر ، كنا نأخذ فى الخط درسين ، أى فى معرفة الكتابة الفرنساوية .. أما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بهما حتى سهل الله علينا بالرجوع »[2] .

ولم يقتصر الطهطاوى فى فرنسا على مهام وظيفته كواعظ وإمام للطلبة المبعوثين ، وإنما انكب على الإطلاع على الكتب والمجلات

(١) أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى : دكتور محمود فهمى حجازى . ص ١٣
(٢) المرجع السابق . ص ١٤

http://kotob.has.it

الفرنسية وكل ما استطاع أن يصل إليه من مصادر المعرفة . فقد تناولت مطالعاته كتبا كثيرة في الفكر الأوربى والآداب الأوربية ، فقرأ كثيرا فى المنطق والفلسفة والفكر السياسى والآداب . ذكر الطهطاوى هذه الكتب تحت عنوان : « **كتب فى فنون مختلفة** » .

وإلى جانب هذا فقد اطلع الطهطاوى على عدد من الكتب فى القانون والفكر السياسى . وكان لاهتمام الطهطاوى بهذه الموضوعات أثر مستمر فى مؤلفاته : من « **تخليص الإبريز** » إلى « **مناهج الألباب** » بل وكان الطهطاوى أول من ترجم نصا دستوريا ومدونتين قانونيتين من الفرنسية إلى العربية ..

يقول الطهطاوى : قرأت فى الحساب كتاب بزوت[1] ، وفى الهندسة المقالات الأربع الأول من كتاب لوجندره[2] . وقرأت فى فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو شواليه من غير تعرض للعمليات ، وقرأت فى فن العسكرية من كتاب يسمى : عمليات ضابطين عظيمين مع مسيو شواليه ، مائة صفحة ، وترجمتها ،

وكان الطهطاوى مهتما أثناء إقامته فى باريس بقراءة الصحف والمجلات وكان لهذه القراءات أثر مباشر فى تعريفه بجوانب مختلفة من الحياة الفرنسية ، بل أفادته فى تنمية حصيلته اللغوية . يقول : وقرأت كثيرا فى كازيطات العلوم اليومية والشهرية ، وفى كازيطات السياسات اليومية التى تذكر كل يوم ما يصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماه بالبوليتيقة ، وكنت مولعا بها غاية التولع ، وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية .

لقد تكون كتاب **تخليص الإبريز** من فصول ترجمها الطهطاوى

---

(١) Etienne Bézout, 1730-83, Traité d,arithmétique

(٢) Adrien-Marien Légendre, 1752-1833, Elémemts de géometrie

http://kotob.has.it

للإمتحان ، وصفحات كتبها عن البعثة ، وفصول أخرى تحدث فيها عن العلوم ، وإلى جانب هذا كله فقد وصف الطهطاوى الحياة العلمية والثقافية والسياسية والإجتماعية فى باريس وصفا كان له أثر بعيد فى الحياة المصرية وفى تكوين صورة أوربا فى مصر الحديثة »[1] .

★

وصف محاسن باريس وأهلها :

يصف الطهطاوى محاسن أهل باريس فى كتابه : **تخليص الإبريز فى تلخيص باريز** ، بقوله : « اعلم ان مدينة باريس هى أعظم مدن الإفرنج التى يرحل إليها الغرباء لتعلم العلوم ، خصوصا العلوم الطبية .. والعلوم الطبية التى تسمى أيضا علم الحكمة هى : علم الطب والجراحة والتشريح والفسيولوجيا ومعرفة داء الإنسان من حاله ، وسياسة الصحة لحفظها وتطبيب الحيوانات وغير ذلك .. » .

اعلم أن الباريسيين يختصون بين كثير من **النصارى بذكاء العقل** ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى الغويصات .. وليسوا أسراء التقليد أصلا ، بل يحبون دائما معرفة أصل الشيء والإستدلال عليه .

وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب ، حتى الصنائع الدنيئة . وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به ، أو يكمل ما ابتدعه غيره ..

ومن الأمور المستحسنة فى طباعهم **الشبيهة حقا** بطباع العرب ، عدم ميلهم إلى الأحداث والتشبيب فيهم أصلا ، فهذا أمر منسى الذكر عندهم ..

ومما يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهم من سائر الأوساخ ، وإن

(١) أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى . ص ٢٠ — ٢٥

http://kotob.has.it

كانت بالنسبة لبيوت أهل الفلمنك كلاشيء ، فإن أهل الفلمنك أشد جميع الأمم نظافة ظاهرية ..

ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف ، حتى أنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى .. وإذا مشى [الوزير] فى الطريق لا تعرفه من غيره ، فإنه يقلل أتباعه ما أمكنه ، داخل داره وخارجه .

وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيس المسمى الدوق درليان ، وهو الآن السلطان ،.. له من الأتباع نحو أربعمائة نفس لا غير . والفرنساوية يستكثرون ذلك عليه .

فانظر الفرق بين باريس ومصر ، حيث أن العسكرى بمصر له عدة خدم .

القانون الذى يمشى على الفرنساوية الآن ويتخذونه أساسا لسياستهم هو القانون الذى ألّفه لهم ملكهم المسمى لويز الثامن عشر . قوله فى المادة الأولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا ، من رفيع ووضيع ، لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون ، حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره .

فانظر إلى هذه المادة الأولى ، فإن لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وأرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم ، نظرا إلى إجراء الأحكام .

ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم فى الآداب الحضرية .

http://kotob.has.it

وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه ، هو عين ما يطلق عليه عندنا : العدل والإنصاف . وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى المُحَكَّمة والقوانين ، بحيث لا يجور الحاكم على إنسان ، بل القوانين هى المحمَّة والمعتبرة .

وأما المادة الثانية [التى تفرض على سائر الفرنساوية أن يعطوا من أموالهم بغير امتياز شيئا لبيت المال ، كل إنسان حسب ثروته] ، فإنها محض سياسة . **ويمكن أن يقال : لو كانت مرتَّبة فى بلاد الإسلام كما هى فى تلك البلاد ، لطابت النفس ..**

الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر بمدينة باريس ، أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة .

ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسس ، لأن القسس إنما هم علماء فى الدين فقط . وأما من يطلق عليه اسم العالم فهو من له معرفة فى العلوم العقلية .

وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فى العلوم عمن سواهم ، وبذلك تعرف خلو بلداننا من كثير منها .

والعلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهى دائما فى الزيادة ، فإنها لا تمضى سنة إلا ويكشفون شيئا جديدا ، فإنهم قد يكشفون فى السنة عدة فنون جديدة ، أو صناعات جديدة»[1] .

★ ★

وصف مساوئ باريس وأهلها :

يقول الطهطاوى : «ومن خصالهم أيضا صرف الأموال فى

(١) المرجع السابق . ص ٢٠٨ — ٢٩٩ .

http://kotob.has.it

حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فإنهم يسرفون غاية السرف ..

ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا أصلا ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فإن الإنسان ولو من أعيانهم قد يثبت له فجور زوجته فيهجرها بالكلية ..

ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم ، وعدم غيرة رجالهم ، فيما يكون عند الإسلام من الغيرة ، مثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة . ومما قاله بعض أهل المجون الفرنساوية : لا تغتر بإباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ، ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها ..

ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس أو ببلاد النصارى الكاثوليكية ، عدم الإذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم . فإن عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم .

ومن الخصال الذميمة أن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ليغفروها لهم ، فيمكث القسيس فى الكنيسة على كرسى يسمى : كرسى الإعتراف . وعندهم أن أكثر من يدخل الكنيسة أو يذهب إلى الإعتراف يكون من النساء والصغار ..

والغالب فى الشراب عندهم النبيذ ، على الأكل ، بدل الماء .. وأما خماراتها فإنها لا تحصى ، فما من حارة إلا وهى مشحونة بهذه الخمارات ، ولا يجتمع فيها إلا أراذل الناس وحرافيشهم من نسائهم ، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها ..

وبالجملة ، فهذه المدينة (باريس) كباق مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع

http://kotob.has.it

والاختلالات ، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، وأثينة (مدينة العلم) الفرنساوية»[1] .

★ ★

البناء الفكرى :

ذهب رفاعة الطهطاوى إلى باريس وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وعاد منها إلى مصر وهو ابن الثلاثين . شابا فى أوج الشباب . ومع ذلك ، فإن صدمة الحضارة الغربية لم تصبه بالدوار أو الانبهار ، كما أصابت ــ ولا تزال تصيب إلى اليوم ــ كثيرا من المسلمين .

لقد ذهب إلى باريس موظفا فى الحكومة المصرية ــ بوصفه واعظا وإماما للمبعوثين ــ إلا أنه لم يؤثر المتعة وراحة البال ، وإنما جعل من نفسه طالب علم نجيب ينهل من شتى فروع العلم والمعرفة ما رأى فيه نفعا لمصر خاصة وللمسلمين بوجه عام فقرأ كثيرا وترجم كثيرا ، وكان رائدا عظيما من رواد التفاعل بين الحضارات ، وفى كل ذلك كانت تعاليم الإسلام هى المعيار الوحيد الذى يحدد له ما يقبل ، وما يرفض . ولقد تأثر رفاعة فى بنائه الفكرى بعاملين ، وإن كانا فى حقيقة الأمر عاملا واحدا ، هو الفهم المستنير للإسلام . فهو قد حفظ القرآن الكريم فى صغره ، ثم درس فى الأزهر على شيوخ عصره . ومن الطبيعى أن يكون على بَيِّنَةٍ من آيات الله ــ التى ذكرناها فى **التمهيد** لهذا الفصل ــ والتى تعطى أساسيات التنوير من مفهوم إسلامى .

وبجانب هذا ، فقد كان على صلة علمية بعالم مستنير هو الشيخ حسن العطار ، الذى تولى مشيخة الأزهر فيما بعد .

(١) المرجع السابق . ص ٢١١ ــ ٢٥٢ .

https://kotob.has.it

يقول محمود فهمى حجازى : «إن الأستاذ الوحيد الذى أثر فى الطهطاوى أثرا بعيدا ، ومهد له طريق الانفتاح على الثقافة الأوربية هو الشيخ حسن العطار . عرفه رفاعة الطهطاوى فى الأزهر فاتصلت العلاقة الفكرية بين الأستاذ المستنير والتلميذ النابه ، وظلت هذه العلاقة قوية فعالة مؤثرة فى حياة الطهطاوى .

كان الشيخ حسن العطار فريدا فى موقفه من الجديد الذى جاءت به الحملة الفرنسية . لقد جاءت بجيش حكم البلاد وتولى السلطة ، وجاءت بعلماء ومكتبة وأجهزة علمية ، كما جاءت أيضا بنمط من السلوك الاجتماعى يقوم على أساس تحرر المرأة ومشاركتها فى الحياة العامة . وهنا نجد مواقف مختلفة أتخذها العلماء من هذا الجديد الذى جاءت به الحملة الفرنسية .. انتبه (الشيخ العطار) إلى ما عند الفرنسيين من علم وحياة تخالف ما عرفته مصر ، ورأى ضرورة معرفة ما عندهم أملا فى مستقبل أفضل .

اتصل العطار بالفرنسيين ولاحظ كتبهم فى العلوم الرياضية والأدبية ، وأن لديهم آلات فلكية وهندسية . لقد اهتم العطار بمعرفة ما عند الفرنسيين من علم ، ورأى فى الانفتاح على الثقافات الأجنبية امتدادا للانفتاح فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية . ويتضح موقف العطار فى هذا ، من عبارته التالية :

«إن من تأمل فى علمائنا السابقين ، يجد أنهم كانوا ــ مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية ــ لهم إطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التى ألفت فيها ، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع . وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها .. ثم هم مع ذلك ما أخلوا تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات .

http://kotob.has.it

فالعطار لا يرى بأسا من أخذ العلم من غير المسلمين ، بل ويطالب بتوسيع مجال المعرفة وتعميقها فى محاولة للتغلب على الركود الفكرى .. لقد تجاوز العطار دائرة الفقه والنحو ، وألف فى الفلك ، واهتم بالأدب .

أما رفاعة الطهطاوى ، أقرب تلاميذ العطار وألصقهم به ، فقد كان يلتقى بأستاذه فى غير أوقات الدروس ليأخذ عنه علوما أخرى لم تكن تدخل آنذاك فى إطار الثقافة الرسمية ، وهى التاريخ والجغرافيا والأدب »[1] .

*

ويمكن تقويم حصيلة وجود رفاعة الطهطاوى فى باريس ، بما قومه به البارون سلوسترى دى ساس — من أكابر علماء باريس وعضو فى عدة جمعيات علمية ويجيد عددا من اللغات الشرقية — وذلك فى خطاب له :

« وبالجملة ، فقد بان لى أن مسير رفاعه ، أحسن صرف زمنه مدة إقامته فى فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن حتى تأهل لأن يكون نافعا فى بلاده . وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس ، وله عندى منزلة عظيمة ومحبة جسيمة »[2] .

* *

الطهطاوى المبعوث العائد :

عاد رفاعة الطهطاوى من فرنسا إلى مصر فى نهاية عام ١٨٣١ ، وقد « استوى الشرق والغرب » فى عقله وقلبه على وفاق ، فاستطاع

(١) المرجع السابق . ص ٩ — ١٢

(٢) المرجع السابق . ص ٣٠٠

http://kotob.has.it

أن يوائم عقيدته وتقاليده الصالحة وعلم الغرب وماحسن من تقاليده . فظل حفيظا على تقاليده وفروض دينه ، فكان يقوم فى باريس ، بأداء الفروض والسنن أتم قيام ، ولم يأكل شيئا مما لم يذكر عليه اسم رب الأنام ، وواظب على تلاوة القرآن الشريف ، ومطالعة العلم المنيف ،

وجمعَ بين نسبة الأزهر الحقيقية ، واكتساب العلوم الأجنبية ، اللتين بانضمامهما إلى بعضهما صار هذا الشريف الجليل نافعا لأوطانه ، رافعا ألوية العلم فى زمانه ،

فلم يُفتن رفاعة بالغرب إلا بقدر ما استوى فى عقله من أسباب نهضته وتقدمه ، ولم يجحد للشرق سبقه فى الارتقاء ، وان جحد منه تخلفه وتقاعسه ، وهو أولى من الغرب بالمحامد »[1] .

وبعد عودته ، « عُيِّن مترجما ومدرسا للغة الفرنسية بمدرسة الطب فى أبى زعبل . وكانت الدروس تلقى فيها بالفرنسية .. وبعد سنتين أمضاهما بمدرسة الطب ، انتقل الى مدرسة الطوبجية (المدفعية) بطرة ، لترجمة الهندسة والفنون الحربية .. وتقدم باقتراح إنشاء مدرسة للترجمة ، لإعداد طبقة من المترجمين الضالعين فى اللغة العربية واللّغات الأوربية ، يقومون بترجمة ما تنتفع به الدولة من كتب الغرب ، وتستغنى البلاد بأبنائها عن الدخيل ، وليكونوا صلة بين الشرق والغرب . ولقى الاقتراح قبولا من محمد على ، فعهد إليه باختيار تلاميذها مُناصفة بين القسمين البحرى والقبلى ممن يقرأ ويكتب بشرط أن يكون التلميذ صحيح البنية ، وسنه ما بين أربع عشرة سنة إلى ثمانى عشرة ، ..

وعرفت المدرسة عندما انشئت عام ١٢٥١ هـ ــ ١٨٣٥ م

---

(١) رفاعة الطهطاوى : دكتور حسين فوزى النجار . ص ٥٣ ــ ٥٤

http://kotob.has.it

بمدرسة المترجمين ، وغير اسمها بعد ذلك إلى **مدرسة الألسن** . ومدة الدراسة بها خمس سنوات ، قد تزاد إلى ستة .

واللغات التى تدرس بها هى العربية والفرنسية والتركية والفارسية والإيطالية ، الهندسة والجبر والتاريخ والجغرافية ودرست الانجليزية لفترة من الزمن ..

واتسعت مدرسة الألسن .. وفى عام ١٢٦٣ هـ ــ ١٨٤٧ م أنشئ بها قسم لدراسة الشريعة الإسلامية .. وقسم للمحاسبة وآخر للادارة الإفرنجية »[١] .

وإذا ما انقضى عهد محمد على ، وخلفه من ذريته ضعاف الفكر والعزم حتى تراجع التعليم ، فلم يلبث عباس أن ألغى مدرسة الألسن فى أوائل حكمه ، فى شهر المحرم سنة ١٢٦٦ هـ ــ نوفمبر ١٨٤٩ م .

بل إن عباس عمد إلى التخلص من رفاعه وحركته التنويرية ، فأبعده إلى السودان ناظرا لمدرسة إبتدائية ينشئها هناك !

ولم يعد رفاعة إلى مصر إلا بعد وفاة عباس وتولية سعيد الذى لم يكن أفضل من سلفه بالنسبة للتعليم ، فقد أصدر أمره بالغاء المدرسة ولمَّا يمضى على توليته سبعة أيام .

وفى القاهرة عين الطهطاوى ناظرا ثانيا للمدرسة الحربية ، تحت رئاسة سليمان باشا الفرنساوى رئيس رجال الجهادية .

ثم رأى سعيد إنشاء مدرسة حربية لإعداد ضباط أركان حرب

---

(١) المرجع السابق . ص ١٠٠ ــ ١٠٣ .

http://kotob.has.it

للجيش ، وعهد بذلك إلى سليمان باشا الفرنساوى . فقام بإنشائها بالقلعة عام ١٢٧٧ هـ ــ ١٨٥٦ م ، وبعد قليل التمس إحالته على التقاعد ، فعين رفاعة ناظرا لها .

وبدأت حياة المعلم من جديد على النسق الذى يهوى .. فأراد أن يحيى فى مدرسة أركان الحرب ، مدرسة الألسن القديمة ، فتكون مركزا للثقافة والإشعاع الفكرى فى مصر . فعرض على الطلاب دراسة اللغة العربية ، وترك لهم حرية اختيار إحدى اللغتين الشرقيتين : الفارسية أو التركية ، وإحدى اللغات الأوربية : الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

ولم يلبث أن أنشأ بها قسما للمحاسبة ، وقلما للترجمة .. ولم يكتف رفاعة بالترجمة ، بل عمد إلى إحياء التراث القديم ، فسعى حتى صدر الأمر بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة ، عَمَّ الانتفاع بها فى الأزهر وغيره ، منها : تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، والمقامات الحريرية ، وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت .

وعهد إليه بنظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة وتفتيش مصلحة الأبنية . وأصبح رفاعة للمرة الثانية مهيمنا على شئون التعليم فى مصر .

ولكنه واجه البطالة من جديد ، ففى عام ١٢٧٨ هـ ــ ١٨٦١ م ألغيت المدرسة بعد خمس سنوات من إنشائها .. وبقى متعطلا قرابة سنتين ، حتى تولى إسماعيل ، فأعاد ديوان المدارس ، وعين رفاعة عضوا فى قومسيون الديوان ، للنظر فيما يجب نحو افتتاح المدارس الجديدة .

http://kotob.has.it

وكان أبرز ما عهد إليه فى عهد إسماعيل ، نظارته لقلم الترجمة الذى أنشئ سنة ١٨٦٣ لترجمة القوانين الفرنسية .. ووسعت الترجمة مجلدات عديدة طبعت فى مطبعة بولاق »[1] .

★

وفى ٢٧ مايو ١٨٧٣ انطفأ هذا النجم المتألق من نجوم التنوير ، الأَمِيرَالَايْ رفاعة رافع الطهطاوى بك ، بعد حياة حافلة بجليل الأعمال ، وعظيم المهام . « لم يرث من الغرب شعورا بالنقص **يحمله على التنكر لمثله وتقاليده وأهله ، ولا شعورا بالإستعلاء يدفعه إلى العزلة والإنطواء والإنفصال عن المجتمع الذى نشأ فيه .**

فإذا كانت البلاد الافرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم الرياضية والطبيعية ، وإذا كانت البلاد الإسلامية قد برعت فى العلوم الشرعية والعمل بها ، وفى العلوم العقلية ، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها ، فإنها فى حاجة إلى كَسْبِ مَالَا تعرفه وجلب ما تجهل صنعه ، .

« ويعترف الفرنج لنا بأننا كنا أساتذتهم فى سائر العلوم ، وتقدمنا عليهم ، والفضل للمتقدم » ،

فشعور رفاعة بسبق أمته وبلاده فى مضمار الحضارة ، وأنه ينتسب إلى بلاد كانت أكمل سائر البلاد تمدنا ورفاهية وتربية زاهرة زاهية ، وأنه من مصر ، التى هى أعظم بلاد الدنيا وأعمرها ، وأنها لو توفرت فيها أدوات العمران ، لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم : مصر أم الدنيا ، شعوره بكل هذا قد حماه ولاشك من مركب النقص أو مركّب

---

(١) المرجع السابق . ص ١١٣ — ١١٦ .

http://kotob.has.it

الاستعلاء. فاستوى الشرق والغرب فى قلبه وعقله على وفاق هداه إلى الطريق القويم لتلمس أسباب التقدم والعمران لبلاده ، وهى الأخذ بعلوم الغرب وفنونه وصنائعه . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم والتعليم ، وخلق جيل متنور يقود البلاد إلى التقدم والارتقاء»[1] .

★

رحم الله رفاعة الطهطاوى .. كان فردا يكافىء جماعة من خيرة المؤمنين ..

وحين نقارن بين رفاعة ، داعية التنوير الحقيقى ، وغيره من دعاة التغريب الأعمى — وما أكثرهم ! — نتذكر قول الحق : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوى مِنَ اللهِ ورِضْوَانٍ ، خَيْرٌ ، أم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ واللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2] .

★ ★ ★

(١) المرجع السابق . ص ٤٨ — ٤٩

(٢) التوبة : ١٠٩ .

http://kotob.has.it

فقـه الصواريـخ ...

الفقه ــ فى «لسان العرب» ــ يعنى : «العلم بالشىء والفهم له» وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه .. وقد جعله العرف خاصا بعلم الشريعة .

والفقه فى الأصل : الفهم

قال الله ، عز وجل : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ، أى ليكونوا علماء به .

وفقه فقها : بمعنى علم علما .

وفقيه العرب : عالم العرب .

ذلك هو المدلول اللغوى الأصيل لكلمة الفقه ، أى العلم بالشىء ، والفهم له ، والتبحر فيه .

وإذا كان العرف قد حاد عن الأصل فقصره على العبادات والمعاملات وأحكام الطهارة وآداب دورات المياه ، فقد آن الأوان فى عصرنا الحاضر ، ان نرد الشىء إلى أصله ، فنتحدث عن فقه العلوم الكونية ، ونذكر بعض علماء المسلمين المعاصرين الذين اضاءوا فى سمائها ، واستضاءت بهم دنيا العلوم والتقنيات المتقدمة .

وفى هذه العجالة نذكر :

محمد عبد السلام ، فقيه الذرة ، الباكستانى ...

وفاروق الباز ، فقيه الجيولوجيا وأبحاث الفضاء ، المصرى ...

وأحمد زويل ، فقيه الليزر ، المصرى ...

وغير هؤلاء كثير ...

★

http://kotob.has.it

إن الإسلام يدعونا لأن نطلب العلم النافع من كل مصدر ، حتى لو كان فى بلاد الكفر .

ولقد حققت الحضارة الأوربية المعاصرة تقدما علميا هائلا فى شتى مجالات الحياة ، علينا أن ننهل من من نتاجه الذى ينفعنا فى دنيانا ومعايشنا بغير حدود .

أما جوانبها الأخرى التى تتعلق بالتيارات الفكرية وفلسفة الحياة وسلوكيات الأفراد والجماعات ، الخ ؛ فلابد أن تصفى من خلال تعاليم الإسلام وتوجيهاته وأطره ، فما اتفق معها قبلناه وما خالفها رفضناه .

ومن المؤكد أن فى تعاليم الإسلام كل ما ينفعنا فى ديننا ودنيانا ، لكن عقد النقص التى يعانى منها كثير فى مجتمعاتنا المتخلفة ـــ نظرا لقرب عهدهم بسطوة الإحتلال العسكرى وجبروته ـــ قد تنحل ، أو تكاد ، عندما يرون الغرب يطبق بعض تعاليم الإسلام ـــ عن غير قصد ـــ فيقبل هؤلاء المعقّدون على تطبيقها .

لقد عقد فى أكتوبر ١٩٨٧ ، مؤتمر «**الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية**» باسلام أباد فى باكستان ، ودعى إليه عدد من علماء الغرب . وفى موضوع **الصحة الوقائية** ، وقف طبيب إنجليزى يدعى **الدكتور ولسن** ، يعمل فى المشروعات الصحية ببرامج الأمم المتحدة للتنمية ؛ فى أفريقيا ، بين شعوب غالبيتها من المسلمين ، وقف يصرخ بأعلى صوته ويقول : لماذا لا تطبق هذه الشعوب تعاليم النبى محمد ؟ لقد تكلم كثيرا فى الصحة الوقائية ، وأمر بالنظافة والإستحمام ، ونهى عن مخالطة المرضى حتى لا تحدث العدوى ، ونهى عن التبول فى الماء . لماذا لا تنفذ هذه التعليمات ؟!

إن فى تعاليم الإسلام الكثير عن النظافة والنظام ، واتقان العمل ،

http://kotob.has.it

والأخذ بالأسباب ، وطلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، الخ ، لكن أغلبية المسلمين لا تلتزم بهذه التعاليم . وإذا ما استيقظت يوما من سباتها ، فيما يقال له : صحوة ، أو نهضة ، أو ما شابه ذلك ، **كان جل همهم الأخذ بالمظاهر دون الجواهر ، وارتداء الجلباب ، وامساك العصا ، والمسح بالطيب ... ولقد هلك المتطعون ، كما قال عمر ...**

* *

وخلاصة القول ، فى مواجهة الحضارة الغربية ، أنه :

ـ **لا ، للتغريب** ... وقد رأينا ما يعنيه التغريب ، ورأينا حقيقة دعاته مثل أصحاب المذهب السلامونى ، وما أكثرهم بين الشعوب الإسلامية ...

ـ **لا ، للرفض الكامل** ... الذى يدعو إليه الهاربون من حياة الواقع إلى عالم الخيال وأحلام اليقظة ...

ـ **نعم ، وألف نعم ، للتطوير** ... الذى يأخذ منها ومن غيرها ما ينفع دنيا المسلمين ومعايشهم ، ويأخذ بأيديهم من هوان الضعف والإنحطاط .

*

يقول ربنا ، وقوله الحق :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لتعارفوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١)

وحين يتعارف الناس : أفرادا ، وشعوبا ، وقبائل ، يقدّم كل منهم نفسه للآخر بأفضل ما وصل إليه من متاع الدنيا وزينتها وعدتها

(١) الحجرات : ١٣

http://kotob.has.it

وخيراتها ، فيقتبس الإنسان من أخيه الإنسان ما كان يفتقده ، أو ما استحال عليه بلوغه . وبهذا تتفاعل الحضارات وتزدهر الحياة . فهكذا أرادها الله ، إذ يقول : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرض ، جَمِيعًا مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)

وهذه تعاليم القرآن وقصصه تأمر بالأخذ بالأسباب ، إذ أن السَّماء لا تمطر ذهبا ولا فضةً ، فيقول :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ من قُوَّة﴾(٢)

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ ، قُلْ سأَتْلُو عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فى الأَرْض ، وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَئْ سَبَبًا . فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (٣)

★ ★

والحق ، إن حقائق التغريب ، وما استبان من أهدافها ووسائلها ، إنما هى تفسير حى لما جاء فى القرآن العظيم ، وتحقيق لتنبؤاته :

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ، فَتَكُونُونَ سَوَاء﴾(٤) .

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِىّ وَلَا نَصِير﴾(٥) .

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكُمْ من بَعْدِ إِيمَانِكُمْ ، كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِندِ أَنفسِهِمْ ، من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ ، فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَى يَأْتِى اللهُ بِأَمْرِه ، إِن اللهَ على كل شئ قدير﴾(٦) .

★ ★ ★

---

(١) الجاثية : ١٣ (٢) الأنفال : ٦٠ (٣) الكهف : ٨٣ ــ ٨٥
(٤) النساء : ٨٩ (٥) البقرة : ١٢٠ (٦) البقرة : ١٠٩

http://kotob.has.it

كتـب للمؤلـف

- المسيح
في مصادر العقائد المسيحية
- وقد صدرت ترجمته الإنجليزية تحت عنوان :

THE CHRIST as seen in the Sources of the christian Beliefs

- الوحى والملائكة
في اليهودية والمسيحية والإسلام
- النبوة والأنبياء
في اليهودية والمسيحية والإسلام
- طائفة الموحدين من المسيحين
عبر القرون
- حقيقة التبشير
بين الماضى والحاضر
- اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس
- تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة
في اليهودية والمسيحية والإسلام
- حوار عبر النصوص بين المسيحية والإسلام (بالفرنسية)

-DIALOGUE TRANSTEXTUELLE entre
Le Christianisme et L,Islam Centre Abad,6 rue Baudin, 93400 Saint Ouen, PARIS

★ ★ ★

http://kotob.has.it

الفهـــرس

مقدمة ٣

التغريب حرب صليبية ٥

انتقام الصليبيين ــ السيطرة الإستعمارية ٨

العالم يعيش العصر المسيحى ١١

تحت شارة الصليب ــ فشل التنمية ١٣

دعا التغريب ١٥

سلامه موسى ــ النشأة والخلفية ١٦

صدمة الحضارة والانبهار ــ التكوين الفكرى والعقائدى ١٧

دعوة سلامة موسى ٢١

ودعـاة التنوير ٢٤

تمهيد ٢٦

رفاعة الطهطاوى ــ النشأة والخلفية ٢٨

الطهطاوى فى باريس ٢٩

وصف محاسن باريس وأهلها ٣١

وصف مساوئ باريس وأهلها ٣٣

البناء الفكرى ٣٥

الطهطاوى المبعوث العائد ٣٧

فقه الصوارخ ٤٣

مراجع ٤٧

رقم الإيداع : ٨١١٦ / ١٩٩٠

طبع بدار نوبار للطباعة

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

هذا الكتاب

قضية التغريب من القضايا المصيرية فى حياة شعوب العالم الثالث بوجه عام ، ومن بينها شعوب العالم الإسلامى على وجه الخصوص .

وهى قضية لا تزال موضع جدل ، يتناولها المثقفون وأولو الأمر من وجهات نظر مختلفة ومواقف متباينة ...

إن هذا الكتاب محاولة لالقاء الضوء على أهم جوانب هذه القضية الخطيرة ، مساهمة فى حسمها قبل فوات الأوان ...

وعلى الله قصد السبيل

مكتبة التراث الاسلامى
ت ٣٩١١٣٩٧ ٣٩٢٥٦٧٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

http://kotob.has.it

بسم الله الرحمن الرحيم

تم تحميل الملف من

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الاديان

The Guided Islamic Library for Comparative Religion

http://kotob.has.it

http://www.al-maktabeh.com

مكتبة إسلامية مختصة بكتب الاستشراق والتنصير ومقارنة الاديان.

PDF books about Islam, Christianity, Judaism, Orientalism & Comparative Religion.

لاتنسونا من صالح الدعاء

Make Du’a for us.